الفصل الثاني

الخروج

. . . هب . . . ياهيبا ، هيبا ، هيبا . . . ياهيبا - إيب، ها، هيا - إيب، ها ، هيا - ايب ها ها هياى - ها ها ايب.

هكذا تهتف بنات ونساء يام المفعمات بالحيوية والقوة، وهن يمشين بطريقة محفوفة بالمخاطر في مجموعات من ثلاثة أو أربعة على السلم الصخري عند فوهة البئر الواسعة، ثم يسحبن بكل قوة الحبال الغليظة ليرفعن الماء الذي يهب الحياة من الأعماق السفلى. ومن عمق ١٨ قامة يسحبن هذا الماء في دلو من جلود الماعز مشدودة على إطارات من الوَتَلَ، وينشدن نشيدهن ذا النغمات العذبة عندما يسحبن الحبال، كل واحدة منهن في دورها تمسك الحبال بيد واحدة أو بكلتا يديها. هذه الحبال تجري على بكرات صنعت بالمنازل، ومثبتة على مسافات فيما بينها حول البئر على إطار خشبي تسنده أعمدة متينة. وكل حبل من هذه الحبال أطول قليلاً من عمق فتحة البئر، وبه دلو في كلا طرفيه حتى يمكن أن يتم ملء أحدهما أسفل البئر بينما الآخر يتم الإمساك به عندما يصل إلى القمة لكي يتم تفريغه في أحواض تشبه دلاء البئر ولكنها أكبر منها وموضوعة على منصات، والتي وصفت في مكان قريب. وكل منصة من تلك المنصات تحيط بها دائرة من الأغنام والماعز أو الإبل تنتظر إطفاء ظمأها بعد قضاء أيام معلومة في مراعي الصحراء التي تمتد ليومين على أقصى تقدير للأغنام والماعز وأربعة وخمسة أيام في هذا الموسم من السنة للإبل.

ولقد وصلنا بئر الخضراء العظيم قبل الظهر بقليل يوم ٢٥ يوليو، بعد رحلة يسيرة لحوالي خمسة عشر ميلاً عبر أرض صحراوية منبسطة تكسوها الأشجار القصيرة المتناثرة، من (ابن منجم) وهي أقصى قرية إلى الشرق من نجران، حيث كنا قد قضينا الليل بها. وقد انطلقت مجموعة منا بإبلها عند انفلاق الفجر، حيث خيّمت بالفعل في

أيكة صغيرة من أشجار السنط الكبيرة المتناثرة فوق البئر عندما التحقنا بها مرة أخرى. وكان الغداء جاهزاً تقريباً في مراجل تغلي تفوح منها رائحة الطعام، وفور انتهائي من ترتيب متاعي تحت الظل الكثيف للشجرة التي اختيرت لجلوسي تحتها، مشيت على مهل للبئر. وكان بعض رجالنا قد سبقونا إلى هناك بالفعل، يحدثون البنات تحت ستار عمل ترتيبات للسقيا النهائية لجمالنا في اليوم التالي. ولذلك جلست معهم على سلم البئر لأستمتع بهذا اللهو والمزاح. وقد كن أيضاً جميلات وبعضهن يخففن من جهدهن غير اليسير على الإطلاق، وضحكات المرح والثرثرة التي لا تنتهي. وكانت أجسامهن تنحني وتهتز فوق حافة فتحة البئر عندما كن يجتهدن لسقي حيواناتهن. وكانت ملابسهن البسيطة - أحياناً - والمبللة بالماء المتساقط من الدلاء، تنم عن جمال أجسامهن بالداخل، ولم يخف وجوههن أي ستار عن أعين الرجال، فقد كن يتمتعن بحرية الصحراء أثناء تنفيذ أعمال الصحراء - مثل سحب الماء وقطع الأخشاب.

وبدت واحدة من بين النساء الحاضرات كما لو كانت ملكة وسطهن، ربما كانت بنت شيخ أو زوجة شيخ. وبوقار واضح، مثل واحدة اعتادت على القيادة، أخذت مكانها في أحد المجموعات الصغيرة لسحب الحبال تماماً مثل الباقيات، ولكنها كانت تعمل في صمت إلا في أحيان قليلة يصدر منها صوت «هيب».

كانت تتمتع بوجه وجسم جميلين، وترتدي ملابس جديدة زرقاء داكنة، مع حزام من نسيج الصوف مطرز حول وسطها النحيل في تباين مع جدائل الحبل الأسود التي كانت بمثابة أحزمة للنساء الأخريات. إن بئر الخضراء يبلغ قطرها عشرين قدماً ومكسوة بالحجارة في جميع جوانبها الداخلية حتى مستوى الماء، وتقع على الضفة اليمنى لوادي نجران وترتفع قليلاً فوق النقطة التي تخرج عندها القناة من الصخور في سفح التلال إلى رمال الربع الخالي. ولذلك تعد البئر منطقة توقف للسقيا ذات أهمية عظيمة لبدو يام الذين يجوبون الصحراء برجالهم وقطعانهم. وأثناء شتاء ١٩٣٣م - ١٩٣٤م قام الجيش اليمني، الذي احتل وادي نجران لأربعة أو خمسة شهور، بتعمير

هذ البئـر لحرمان قـبيلة يام المناوئة من نقطة التـجميع المحـتملة هذه. ولقـد قامت الحكومة السـعودية في الحقيـقة بإعادة حفـرها وإصلاحها في غـضون الشهور السـتة الماضية، والآن استعـادت دورها الطبيعي في اقتصاد الصحراء. وتعود ملكيـتها لقبيلة يام ولكن تزورها القبـائل الأخرى بحريـة، من أقرب الأماكن وأبعـدها. حيث تأتي إليهـا قبيلة وائلة من وادي الفَـرْع المجاور، وقبيلة الدواسـر من واديهم العظيم خلف الصحراء، بل وحتى قبيلة الصيعر تأتي إليه من حدود حضرموت البعيدة.

وقد وجـدناه الآن منتجعاً مـلائماً يمكننا فيـه أن نعتني بتنفيـذ ترتيباتنا ومـعداتنا للرحلة الطويلة إلى شـبوة ومـا وراءها. وكان أميـر نجران ومـسؤولون آخـرون سوف يزوـوننا في اليوم التـالي ليروا أن كل شيء على ما يرام وتوديـعنا في رعاية الله. وفي الوقت نفسه وبعـد قيلولة هنيئة في ظل أيكة كـثيفة أطلقت لنفسـي العنان لاستكشاف المنطقة المجاورة. وتسلقت أنا وجعمل، وهو دليلي اليامي من فخـذ جُشم قمة جرانيتية مستـدقة الطرف تسمى الغـر يبلغ ارتفاعها حـوالي ٥٠٠ قدم فوق مسـتوى الوادي في سلسـلة التلال المنخـفضة التي تشكل الضـفة اليمنى للوادي. ومن هنـا تمتعنا بمنظر رائع للمنطقة المحـيطة بنا في كل اتجاه. فـعند أقدامنا يقع البـئر مع مخـيمنا الصغـير المنظم بطريقـة مريحة بين أشـجار السنط. وعلى البـعد تجـاه الغرب ترتفع رؤوس الصـخور الرملية لقرن بلحـارث. وعبر الوادي بعرض خمـسة أميال من هنا، تمتـد سلسلة جبال شعثاء التي تشكل الضفة اليسرى وتمتد في ذيل ضئيل يكاد لا يدرك بالعين داخل سلسلة التلال الطويـلة والمنخفضـة والأرض الرأسية لـعين حبونا الناتئـة في الصحـراء. ونحو الشرق يبسط الربع الخالي عباءته من الرمال الذهبية على وجه الأرض إلى الأفق البعيد. وتسير قنوات حبـونا ونجران وصلة في أقصى الجنوب، خارجة من حـافة المرتفعات في خط مسـتقيم مـثل النرد أو كأشرطة خـضراء داكنة وسط الرمل الذي كان يـتخلله هنا وهناك مـجمـوعات من التـلال المنخفـضة ذات اللون الداكن من صـخور البـازلت أو

الجرانيت. ويرفع كل من تصلال وتنصاب رأسيهما الشاهقين لأعلى من الجبال حولهما، كأنما يمثلان حارسين توأمين لفتحات الوادي. وعلى مسافة أبعد قليلاً إلى الشرق تبرز مجموعة تلال بني كلب المنخفضة مثل جبل جليدي أسود في بحر من الروابي. ونحو الجنوب يقع جبل الثّار الهرمي القاتم ليخفي بشموخ بين صخوره شديدة الانحدار وذات الرؤوس الناتئة والحادة. وكأنما يقف حارساً على فم وادي الفَرع حيث يبرز هناك من المنطقة المرتفعة في خليج صلة الرملي العميق. وخلف «الثّار» وإلى الجنوب الشرقي قليلاً يرتفع برج ميهر[1] المكوّن من الصخور الرملية ذوات الرؤوس المربعة، والذي يرتبط في الأسطورة المحلية بأبي زيد الهلالي البطل القديم من جنوب الجزيرة العربية، ويبرز بوضوح بين جبالها. وإلى البعيد في الشرق بين الرمال آثار جعمل إلى نقطة سوداء صغيرة وهي تل خباش والذي اضطررنا أن ندور حوله في دائرة واسعة لنتفادى الرمل الناعم لوادي صلة في أول مرحلة من رحلتنا. وفي الوقت الذي كنت فيه أشهد هذا المنظر كله كانت الشمس تغطس في حمام من ألسنة اللهب الضبابية، وأشعتها تنطلق بصعوبة لتشق عُباب السماء المليئة بالتراب والضباب خلف جبال حبونا الشمالية - الغربية. وأسرعنا للنزول ونحن نقفز من صخرة إلى أخرى في جانب التل المنحدر بشدة عندما كان الغسق يزداد ظلاماً شيئاً فشيئاً. وكانت الخفافيش تطير فوقنا محدثة طنيناً وهي تخرج من كهوفها وشقوقها بين الصخور القديمة. وهكذا تجاوزنا البئر الذي أمسى الآن مهجوراً وعدنا إلى المعسكر.

وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي سمعنا من على بُعد أزيزاً سير واضح لسيارة تقترب منا، وبعد ذلك بدقائق قليلة كنا نرحب بالأمير وصحبه بينما عبرت سيارتهم الشاحنة قاع الوادي الرملي ووقفت بجوار البئر. ثم سرنا إلى منطقة فيها كتل من الصخور الجرانيتية الهائلة حيث تقرر أن نقضي اليوم هناك في الظل

(١) ميهر: جبل في بلاد وائلة -من بكيل- به آثار حميرية، سيشير المؤلف إلى بعضها لاحقاً. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٤، ص٤٢٦. (المراجعون).

البرد الذي توفره تجاويفها التي تشبه الكهوف وأقواسها الطبيعية. وتم إحضار الشاي والقهوة من معسكرنا للترحيب بالجماعة وإنعاشها، وفي الوقت المناسب تم تقديم وجبة الغداء الوفيرة عند منتصف النهار والتي شملت الأرز ولحم الضأن. وفي الوقت نفسه قمت أنا والشيخ عبدالمحسن[1]، قاضي نجران، بالتجوّل حول الصخور بحثاً عن أي نقوش ورسوم. وقد عثرنا على عدد من كليهما، ولكنها كانت جميعاً قد أصبحت تالفة بصورة سيئة من أثر الرياح والطقس باستثناء بعض الخربشات القليلة المكتوبة باللغة العربية الحديثة نسبياً وليس لها أية أهمية على وجه الخصوص. وعلى أي حال كان من الواضح أن هذه الصخور قد آوت العرب الرعاة منذ وقت موغل في القدم. وقد سجل جوزيف هالفي نقوشاً حميرية من هنا ولكني لم أستطع إعادة اكتشافها، وقد عثرت على كل حال على خربشة باللغة العربية القديمة بين الكتابات الكثيرة الكوفية العربية على الجدران الصخرية. ويمكن العثور على كتابات أخرى من الخط البدائي نفسه على الصخور المواجهة للجنوب في الجانب الآخر من سلسلة الجبال الرئيسة. وكانت صور الإبل وطيور النعام والحيوانات الأخرى شائعة بدرجة كافية، ولكن الأشياء الأكثر إثارة كانت عدداً من الأشكال الهندسية ذات أهمية غامضة. وقد كان القاضي شغوفاً بدرجة عميقة بالتاريخ القديم والمعاصر لمنطقة نجران، وكان يقضي كثيراً من وقته في مقابلة البدو الزائرين ليجمع منهم معلومات عن الأماكن والقرى التي توجد بها نقوش أو أي سجلات أخرى تعود للماضي. وفي الحقيقة يعود له ولأبحاثه الفضل في أنني قد سمعت بالكثير من مثل تلك الأماكن التي تمكنت لاحقاً من زيارتها ورؤيتها بنفسي.

---

(١) هو الشيخ عبدالمحسن بن سليمان بن محمد الخريدلي قاضي نجران آنذاك تولى القضاء في نجران بعد عام ١٣٥١هـ وتزوج واستقر بها إلى أن كانت وفاته فيها عام ١٣٥٥هـ أو ١٣٥٦هـ.
عبدالله البسام: علماء نجد خلال ثمانية قرون، ج٥، ص٢٢-٢٤. (المراجعون).

ولقد استحوذ على الأمير نفسه منذ البداية اهتمام عميق بمشروع بعثتنا المقترح، وإليه يرجع الفضل في تنفيذ جميع الترتيبات الضرورية بصورة حسنة جداً وسريعة. والحق أنني قد تركت له الحبل على الغارب ليكون حراً في إنفاق تلك المصروفات الضرورية نيابة عني. ومن واجبي أن أسجل هنا مع الشكر والعرفان بالجميل أن إجراءاته المالية الناجحة لا يضارعها إلا كفاءة تصرفاته. وربما يكفي أن أذكر أن الإبل التي استأجرها لاستخدامنا لم تكلف أكثر من خمسة عشر ريالاً (حوالي جنيه استرليني فقط) لكل جمل في رحلة استغرقت شهرين ونصف.

وكان الأمير، إبراهيم النشمي، قد أحضر معه لوداعنا ابنه الصغير الوحيد، محمداً، وهو فتى في مقتبل الشباب ويبلغ حوالي خمسة عشر عاماً من العمر، وأخاه، واسمه أيضاً محمد، الذي كان في ذلك الوقت نائب الأمير على منطقتي حبونا وبر. واكتملت الصحبة بحضور موظف المالية المحلي وقائد قوة الأمن وعدد من أتباع الأمير النجديين. وفي الوقت الذي انتهينا فيه أنا والقاضي من بحثنا عن النقوش كان الغداء جاهزاً، في حين كان الأمير قد انتهى من المراجعة الختامية لجميع الترتيبات المتصلة بأفراد ومعدات بعثتنا. ولم أستغرق الآن وقتاً طويلاً في مناقشة جميع التدابير التي تم اتخاذها وتم تسليمي قوائم بالدفعات المقدمة التي تم تسديدها لأصحاب الإبل على اختلافهم وقوائم المبالغ الباقية التي يجب دفعها عند عودتنا، وفي تلك الأثناء تم تعريفي على سعد ابن معيلم الذي سيكون مسؤولاً عن جميع الأفراد بالبعثة. ولم تستهوني عينه البضاء ونعومة سحنته حتى تجعلني أنحاز لصالحه كثيراً عند أول نظرة. ومع ذلك ثبت أنه كفء بدرجة معقولة كوسيط للتصرف في كثير من بنود الأشغال الصغيرة، مثل: المشتريات المحلية، والتفاوض مع المرشدين لإدراجهم في قوائم الأفراد العاملين معنا، والإشراف على تحميل الجمال وتنزيلها وخلافه، والتي تعد جزءاً لا يتجزأ من مثل هذه المغامر ولا يمكنني أن أدخر وقتًا لها وسط خضم الانشغال بالأمور الأخرى الأكثر أهمية. وعلى أي حال كان من الواضح أنه لا يستطيع السيطرة على العناصر المختلفة في جماعتنا، لاسيما

أولئك النجديين الثمانيـة من أتباع الأمير الذين كانوا يشكلون نوعاً من الحراسـة الشخصية المسؤولة عن سلامتي. وحيث إنهم كلهم كانوا من فئة الزكرت[1] مثل سعد فإن كل واحد منهم كان يعد نفسه مساوياً له أو أفضل منه، قـد جعلهم أقل العناصر سهولة في قيادتهم من بين الجماعة عامـة. وبالمقارنة معهم كان البدوي يعد قديسـاً. وفي الوقت نفسه كانت ملاسـهم الرائعة وإبلهم المكسوة بأغطيـة مزركشة بشـكل جذاب قد جعلتـهم يبدون في صورة بهـية وجميلة وكـانوا محط إعجاب الجـميع أثناء إقامـتنا المؤقتة في شبـوة ومنطقة حضـرموت. وأنا مـقتنع تمام الاقـتناع، على الرغم من أنه لم تأت مناسبـة أبداً لاختـبار ذلك، أن هؤلاء الثمانية سوف يقفون معي وقفة رجل واحد في أي موقف جاد أو خطير.

ولبعض من الـوقت تكونت صحبـتي من النجديين الثـمانيـة تحت قيادة سـعد وحوالي اثني عشر رجـلاً أو أكثر من رجال قبيلة يام تحت قيادة جـعمل، بالإضافة إلى فرح بن قـرقاح من قبـيلة قحطان الذي رافقني من أبهـا وتحوّل إلى صيـاد طيور كفء بدرجة معقولة أثناء إقامتنا في نجران. كمـا كان هناك أيضاً بين المرافقين سعد بن عثمان الذي التحق بنا من مجـموعة رحلتي في الربع الخالي ويعـمل على سلخ الطيور وخادم عمـومي، عـلاوة على طباخ وقهوجي وكلاهمـا وفرهما الأمير. وهناك محـمد السائق وبلال الميكانيكي الذي ارتبط بنا في نجران كمساعد لمحمـد. وكان يزعجني قليلاً حقيقة أن المجموعة لا تضم ممثلاً واحداً أو دليلاً من القبائل الأخرى الموجودة في مناطق أخرى غيـر منطقة قبـيلة يام، مثل قبـائل دهم، والصيعـر، والكرب، ولم أستطع أن أتمالك نفسي من التساؤلات إذا مـا كانت تأكيدات الأمير بأن هذا القصور سـوف يتم استيفاؤه في الأماكن المختلفة أثناء سيرنا بالطريق لاستكمال الإجراءات والترتيبات التي اتخذها، وهي ستبرر النتائج ذلك. والحق أنني أسـأت إلى الرجل بمجرد الشك في تأكيداته، ففي كل حالة كان الرجال الذين سماهم يصلون إلى معسكرنا في الأماكن التي دبرها.

---

(١) ترجع هذه الكلمة إلى الكلمة الإيطالية (Sacurta) أو (Shurta) الشرطة، وأيضاً من الكلمـة الفرنسية (Surete). (المؤلف).

وهكذا كان كل شيء جاهزاً فيما بعد ظهر هذا اليوم. وتبودل الوداع الحرين الطويل بين النجديين معنا وأولئك الذين يتبعون الأمير العائدين معه إلى نجران. إنهم سيعودون إلى زوجاتهم وإلى الحياة المريحة الرتيبة بمقر الإمارة. ووقفنا على حافة المجهول، ولم يعلم أحد سواي طول المسافة التي ننوي أن نقطعها إذا سارت الأمور لصالحنا. وكانت شبوة قد ذكرت في الاتفاق غير المكتوب الذي عقدناه مع رحال الإبل على أنها أقصى نقطة في رحلتنا والتي لن يطلب منهم بعدها السير تحت أي ظرف من الظروف. ولم نتمكن من بدء الرحلة إلا في الصباح التالي، وبعد مغدرة إبراهيم النشمي وصحبه تجولت حول الوادي وأشجار السنط بحثاً عن الطيور. وكنت البئر مزدحمة طول الصباح، وهي تمد قطعانًا هائلة من الإبل بالماء بما فيها جمالنا نحن. وفي منتصف النهار كانت البئر قد جفت تقريباً، ونزل فيها رجلان بالحبال ليغرفا الماء في أوانٍ من القطرات الضئيلة في أطراف البئر، وجاء الماء مثقلاً بالطين الأسود، بيد أن الجمال قد سحبت الماء في بطونها وهي تصفيه من خلال الضغط على شفافها. ثم تم صب رواسب الطين على الأرض، وشكلت بركة صغيرة من الوحل الأسود كريهة الرائحة حول البئر. وقد تقلَّب أحد الجمال في هذه القذارة ليخفف من الحكة في جلده المغطى بالقراد، ولكن صاحبه قد انهال عليه بضربات مدوية حتى انتصب الجمل واقفاً على قدميه مرة أخرى. وجاء زوجان، كان من الواضح أنهما قد تزوجا حديثًا، إلى البئر ومعهما حيوانات قليلة لسقيها. وكان معهما حبل جديد تماماً، حيث أنزلاه في البئر حتى يتشبع بالماء قبل الاستخدام. ثم اختبرا استعماله، ولكن ثبت أنه أقصر من عمق الماء بقامة واحدة. وأخرجا جديلة من حبل قديم من متاعهما الضئيل، وقاما بجدلها مع الحبل الجديد، وبدأ العمل - حيث انهمك الرجل وزوجته في سحب الحبل ولا يتبادلان كلمة واحدة إلا ما ندر إلى أن انتهيا من عملهما وغادرا المكان.

وهكذا انقضى النهار، وحلّ الظلام، وكان كل شيء جاهزاً للمغامرة التي ستبدأ مع الفجر. وتضاءلت نيران المعسكر عندما هجعت كل جماعة في سبات عميق، وبقي سراجي المتوهج الوحيد ليضيء الظلال المظلمة للشجيرات المحيطة بنا. وبينما كان الظلام لا يزال يلفنا بصمت مطبق، وكنت تقريباً قد أخلدت لنوم مريح، على ما يبدو، فإذا بنداء الصلاة يعلن مجيء يوم جديد. وكانت جماعة الإبل سوف تسلك طريقاً مباشراً عبر المنطقة الجبلية والرملية إلى أن تصل إلى النقطة المتفق عليها لإقامة المعسكر القادم، أما نحن، ركاب السيارات، فقد بدأنا السفر عند الساعة الثامنة صباحاً حينما بدأت القطعان الأولى من الأغنام ورعاتها البنات تصل للبئر. ولحوالي ميل التزمنا قاع الوادي، ونحن نمر بين تلال هضبة الرّويكبة وهي ترتفع شامخة على كلٍ من الجانبين مثل مدخلين هائلين مهيبين. ومن هنا تنحدر التلال للوراء نحو الجنوب، وتشكّل خطاً حاداً فاصلاً بين الجبال والصحراء. ويسير الوادي في خط مستقيم إلى أن يصل بئراً قديمة مطمورة تسمى بئر الحجف[1] في بطن الوادي قرب تل فريع الصغير، ثم يواصل امتداده إلى أن يدخل في الرمال التي لا حدود لها - مثل شريط واسع أخضر من شجيرات الراك والسواد وسط التلال الصفراء.

وعندما تركنا الوادي خلفنا، اندفعت السيارات الآن على طول الحافة الخارجية للتلال عبر سهل رملي منبسط يندر فيه غطاء الأشجار إلا من بعض الأجمات اليابسة القصيرة وشجيرات السنط القصيرة مثل مظلات كثيرة تقف على مقابضها. وبعد أن مشينا حوالي خمسة أميال عبر هذا السهل، الذي يعرفه البدو بصورة غامضة باسم عضيات نجران، أتينا على هضبة صغيرة مدورة تسمى «جعل الأبيض» وهي من صخور الجرانيت والكوارتز، تمتد نظيرها «جعل الأسود» المكوّنة من صخور البازلت، إلى البعيد قليلاً نحو الجنوب الغربي. هذه الهضاب الصغيرة المتناثرة، مثل لقيلاء

(١) الحجف: قرية تقع على ضفاف وادي حبونا. البلادي، بين مكة وحضرموت، ص٢٠٦. (المراجعون).

وخباش التي وصلناها فيما بعد - لا ترتفع إلا حوالي خمسين أو ستين قدماً تقريباً فوق سطح السهل الرملي. وفي هضبة جعل الأبيض عثرت على رسم بدائي على الصخر لرجل شاهر سيفه مستقيماً في يده اليمنى وخنجر في وسطه.

وكان توقفنا الثاني في «القيلاء» على بعد حوالي سبعة أو ثمانية أميال للشرق. وقد كانت عبارة عن هضبة صغيرة مكوّنة من صخور الجرانيت الضخمة التي تتراكم فوق بعضها بصورة مفككة في وسط السهل الواسع نفسه، الذي كان هنا مكسواً بالرمل بشكل كثيف حيث تلاشى فيه الشريط الضيق من الشجيرات الذي يميز قناة وادي صلة بالقرب من الهضبة الصغيرة مقابل الخط الزهري المنخفض في أول سلسلة حقيقية من سلاسل التلال الرملية في الصحراء. وبعد مواصلة السير حوالي سبعين ميلاً على طول خط سلع وصلنا إلى خباش وهي عبارة عن كتلة صخرية منخفضة مكوّنة من الجرانيت الرمادي ذي الحبيبات الخشنة وقد طمسها الرمل تقريباً. وكانت هذه أبعد نقطة وصلناها في لشرق حتى الآن. وخلفها تمتد رمال الربع الخالي الكثيفة. والحقيقة أننا حتى هذه اللحظة لم نواجه أي صعوبة تذكر، على الرغم من أننا قد قاومنا إغراء مطاردة بعض الغزلان التي رأيناها في طريقنا وزوج من طيور الحبارى. وفي جولة بحث حول هضبة خباش لم نعثر إلا على قشر بيضة نعام، ولا شيء أكثر من ذلك. وإلى البعيد باتجاه الشرق لاحظنا هضبة أخرى سوداء صغيرة تسمى «القفال» وسط الرمال، بينما في الضباب البعيد في اتجاه جنوب ـ جنوب شرق كانت ترتفع سلسلة هضبة ذات الصخور الجرانيتية العظيمة، والتي سوف نصلها في غضون يومين من هنا. والنباتات في هذه المنطقة كانت محدودة تقريباً على حشائش النصي، ولكنها كانت ميتة وجافة جداً.

وامتد سيرنا الآن باتجاه الجنوب -الجنوب الغربي نحو فم الوادي ويسمى إمارة والذي يهبط في اتجاه جنوب- شرق من تل مرتفع قليلاً بهذا الاسم نفسه في قرية ميهر المجاورة. وبعد حوالي تسعة أو عشرة أميال في الرمال وصلنا إلى نقطة يتلاشى عندها

هذا الوادي في الصحراء بين سلاسل تلال البقع وعباسة المنخفضة. ومن هناك انطلقنا في قاع الوادي الوعر قليلاً حوالي ثلاثة أميال حتى وصلنا إلى مجموعة صغيرة من شجر السمر (أي السنط) وفيرة النماء والتي كانت مكان الالتقاء المتفق عليه مع مجموعة الجمالة. وهكذا اخترنا هنا موقعاً ملائماً لمعسكرنا. وكان الوقت قد تجاوز الواحدة ظهراً بقليل، ولكن الريح الشديدة كانت بالفعل قد بدأت تهب علينا، مثلما كانت تفعل كل مساء في الخضراء، وكان الرمل يندفع بقوة في عواصف عظيمة عبر الوادي. وكان معسكرنا يقع قريباً من المقدمة المنخفضة لسلسلة جبال طويلة من صخور الجرانيت القاتم تسمى خرطم الصعرة، والتي تشكل الجبهة الشرقية لتلال اليمن.

وكنا في هذه النقطة ما نزال في الأراضي السعودية، ومع ذلك لم يحتفظ جباة ضرائب نجران إلا حديثاً فقط بسجلات سنوية للأغنام والإبل التي تشرب من الماءين كذلك في وادي الحشوة وكلاهما يقع بعيداً إلى الغرب من معسكرنا. ومسألة الحدود بين اليمن والسعودية قد خضعت مؤخراً جداً للنظر من قبل الحكومتين، وسوف نوردها بالشرح في الوقت المناسب. إن الحدود الجغرافية الطبيعية دقيقة إلى حد يثير الدهشة، ولكن يجب النظر في مسألة حقوق السقيا داخل حواف التلال؛ ولذلك يجب أن تسير الحدود السياسية مع الحدود القبلية المعترف بها، والتي تم تحديدها منذ زمن طويل مع الاعتبار الملائم لجميع المصالح المعنية.

وبعد الظهر تسلقت إلى نقطة ممتازة في سلسلة الصعرة التي تطل على المنطقة وتوفر رؤية جيّدة. ويمتد وادي إمارة في خط عريض من الأشجار الذابلة وحشيش الثمام الجاف نحو ميهر ويفصله رف منخفض من الحصباء عن وادي الحشوة المشابه له الذي تقع في جانبه، على بعد مسيرة يوم مع اتجاه المجرى قرية يمنية تحمل الاسم نفسه، وتتكون من مبان متناثرة تشبه القلاع وسط البساتين، وتسكنها عشيرة وائلة، وعلى مقربة من أعالي القرية يتلقى الوادي المياه المتصرفة من وادي أملح وضدح وكلاهما به مجموعة من منازل عشيرة وائلة في مجراه البعيد. ويصل وادي الحشوة

إلى الصحراء جنوب سلسلة البقع التي ذكرناها من قبل، ولكن لا هو ولا وادي إمارة يتقدمان كثيراً للأمام عكس الرمال الزاحفة التي تعترض تقدمهما. وكلا القذتين تندمجان بصورة عامة في حديث البدو تحت اسم واحد وهو وادي العطفين.

وحيث إن فترة بعد الظهر قد انقضت دون ظهور أي أثر لجماعة الإبل التابعة لنا فقد بدأنا نتساءل ما إذا كانوا قد أخطؤوا في الوصول إلى مكان الالتقاء أو ضلوا في الطريق. وفي الحقيقة لم يصلوا إلا الساعة الثامنة ليلاً. ويعود سبب التأخير جزئياً إلى سقوط أحد الأحمال، ولكن السبب الأكثر خطورة كان اختفاء ناقة أثناء توقفهم منتصف النهار. ولم يكتشف أحد اختفاءها إلا بعد أن تمّ إعادة الإبل من المرعى لاستئناف السير في فترة بعد الظهر، وبعد ذلك تم اقتفاء أثرها في طريق طويل حتى الخضراء حيث عادت إلى هناك بحثاً عن صغيرها الذي انفصل عنها ذلك الصباح. وبدا كل فرد في غاية السرور على الرغم من ذلك الحادث، وسار كل شيء على ما يرام. وكان الليل وساعات الصباح الباكرة جميلة جداً بصورة عامة، إذ كانت باردة وخالية من الريح في تلك الفترة من العام. وفي ذلك المساء على وجه الخصوص كانت السماء ملبدة بالغيوم بعد الغروب مباشرة، ولكن عندما غاب القمر حوالي الساعة العاشرة مساءً كانت السماء قد أمست صافية مرة أخرى وتلألأت النجوم ببريقها الآسر. وعلى أي حال هبت في الصباح الباكر من اليوم التالي ريح مفاجئة، ليست شديدة جداً، ولكنها كانت مستمرة، وغطى الرمل المتطاير الوادي مما جعل الرؤية محدودة. وكان من المقرر أن يتم سقيا الإبل في الماءين على بعد أميال قليلة فقط، وقررت أن استغل هذه الفرصة لزيارة قمة ميهر وتبعاً لذلك انطلقت بقوة عبر وادي إمارة حتى دخلنا وادي الحشوة الذي يتدفق عند هذه النقطة من قناته بأعلى التل في وادٍ رملي واسع مليء بأشجار السنط وشجيرات الراك والنباتات الأخرى. ولفترة من الوقت طاردنا بعض الغزلان بلا نجاح، ثم مضينا في خط مستقيم نحو قاعدة تل ميهر. وهناك أوقفنا السيارتين، وأسرعت أنا وجعمل في التسلق بصعوبة

على الواجهة الجرانيتية للجبل. وبعد حوالي ألف قدم فوق سفح التل وصلنا قاعدة ذروة ضخمة من الحجر الرملي التي تشكل القمة الحقيقية. وبعد حوالي مئة قدم أخرى وصلنا إلى قاعدة عريضة ترتفع منها الأسوار العمودية «لقلعة» أبو زيد حوالي أربعين قدماً حتى القمة المسطحة. وقد بدا هذا الجزء الأخير غير يسير المنال من الناحية العملية ولم أبذل إلا محاولة فاترة لتسلق الجُرف عن طريق سلسلة الشقوق الضحلة والمتباعدة عن بعضها في الصخور والتي صنعها الإنسان بلا ريب؛ ولذلك اكتفيت بأن أدور دورة كاملة حول «القلعة» على طول القاعدة العريضة التي تدعمها. وعلى الأسوار العمودية كانت هناك بعض النقوش القليلة مكتوبة بالخط العربي البدائي العادي علاوة على عدد من الرسوم البارزة ذات الأهمية الكبرى. ويبدو أن أحد هذه الرسوم كان صورة شخصية لأبي زيد نفسه مع إضافة قضيب ذي نِسب مبالغ فيها. والرسوم الأخرى تمثل ماشية، بينما كانت مجموعة أخرى بكاملها مخصصة لمعركة ضخمة بين كائنات بشرية وثعابين كبيرة. وحيث إنني قد قمت -حسب أقصى قدرتي- برسم الصور والنقوش، فقد جلست مع جعمل للتمتع بهذا المشهد العريض نأخذ وجبة بسيطة من الخبز والماء كنا حملناها معنا. وأخرجت علبة ساردين أيضاً من الجراب، ولكن جعمل رفض تناول أي شيء من هذا الطعام المريب، وهكذا التهمت السمك كله بمفردي.

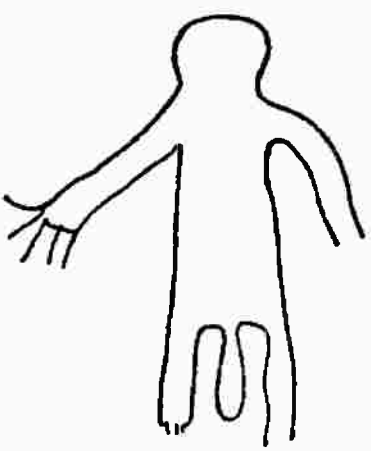

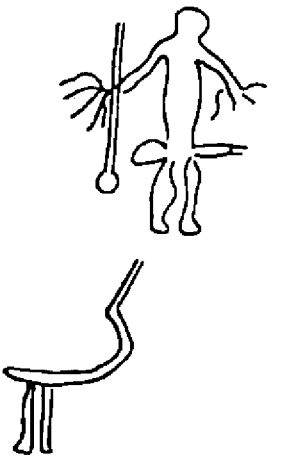

وتحتنا -على مسافة غير بعيدة- كان رجالنا ينعمون بنوم القيلولة عند منتصف النهار في واد ظليل، بينما فوقهم بقليل في نتوء من الوادي فوق مضيق صخري قصير كانت تقع عين الماء "المايين". وقد نزلنا في ذلك الاتجاه، وواصلت وحدي السير على الأقدام صوب معسكرنا، في حين انطلق جعمل ليرشد السيارات لتسلك الوادي. وكان عمق عين الماء يبلغ خمسة أقدام فقط في الرمال الكثيفة في قاع الوادي. وتقع تحت شجرة عُنَّاب ضخمة والتي كانت تلهو بين أغصانها مستعمرة كاملة من طيور الحباك الصغيرة (Weaver Birds). ويمتد أيضاً صف من أشجار السنط مسافة معينة في اتجاه الماء. وكان معسكرنا على بعد حوالي نصف ميل في الأسفل، في واد ضيق كثيف بأشجار السنط خلف الممر الصخري الضيق الذي يفصل بين جزأي القناة العلوي والسفلي، ويهبط نحو الوادي عدد من الممرات الضيقة كثيرة الصخور المتحدرة من الجبال المحيطة. وكانت هذه البقعة جذابة ورائعة بصورة عامة. ولكن الوقت كان قصيراً ولا نستطيع أن نتوانى، وكان رفاقنا -في الحقيقة- قد انتهوا من تناول طعام الغداء، وكانوا على أهبة الاستعداد لاستئناف سيرهم. وهكذا حدما وصلت السيارات غادرت الإبل، وأخذنا قسطاً من الراحة لبرهة من الزمن بعد الوجبة الممتازة وذلك قبل أن نتبعهم.

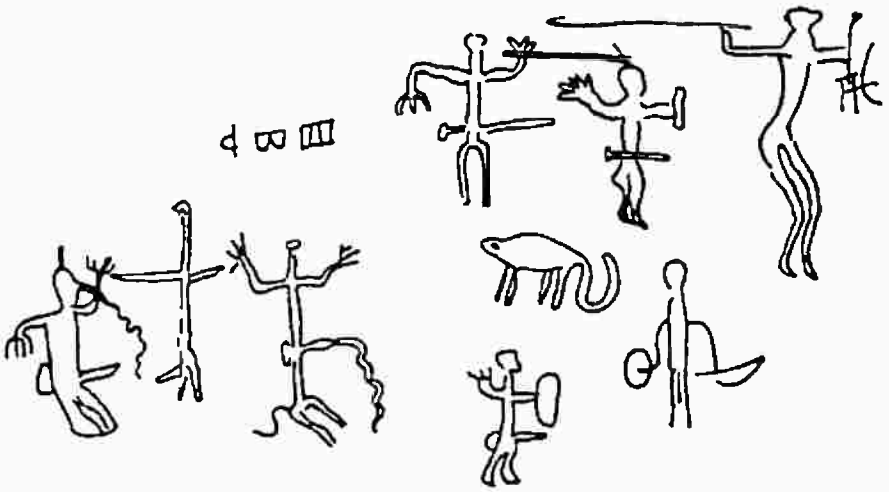

ولم يكن علينا إلا أن نسير حوالي خمسة عشر ميلاً فقط، ولكن الطريق عبر القنوات الرملية الكثيرة وأحزمة الشجيرات المتداخلة في وادي الحشوة لم يكن من السهولة في شيء. وفور أن انتهينا من الوادي -على أي حال- في أقصى الطرف الشرقي لسلسلة جبال شعير على طول الضفة اليمنى منه سرنا بسهولة لمسافة فوق سهل رملي ثابت حتى وادي طيِّبة الاسم. وهنا بالقرب من شجرة سرح كبيرة وواضحة في مسار وعر نسبياً بين التلال الرملية المنخفضة أوقفنا سياراتنا. وكان الوقت قد اقترب بالفعل من غروب الشمس، ووصلت الإبل بعد حوالي ساعة. بدأت الآن أكن تقديراً كبيراً لجعمل، فهو نموذج للرجل الوسيم الرقيق ممشوق القوام من رجال قبيلة يام. وكانت معرفته بهذه المنطقة كلها مرضية جداً، ولم يكن هناك أي معلم من المعالم الأرضية التي لا يستطيع تسميتها. وهذا بالضبط ما كنت أحتاجه، وكنت أكثر من راض عن هذه البداية المبشرة بالنجاح لرحلتنا. ولم تكن الجماعة قد فرزت نفسها بعد في مجموعات متجانسة، وكان العنصر النجدي -ربما- يشعر قليلاً بالغيرة من الاهتمام الذي أوليه للبدو الذين كانوا أكثر إمتاعاً. وكانوا يودون لو أنني تناولت طعامي معهم وحدهم، ولكني صممت على أن أولئك الذين يعملون حقيقة معي أثناء السير يجب أن يأكلوا معي بالمخيم. وكان فرج أيضاً، على الرغم من أنه ليس

من البدو المحليين ولا من النـجديين، قبلة الأنظار الغـيورة. وخلال سيـرنا هذا اليوم تمكن هو وسعـد بن معيلم من افتـعال مشاجـرة مع بعضهمـا من لا شيء على وجه الخصوص. وطبقاً لأقصى حدود علمي كان يبدو أن فرجًا هو المخطئ، وقد لاحظت بالتأكيـد لبعض الوقت، حتى قبل مغادرة نجـران، أنه لم يكن في أفضل حالاته على الإطلاق. وأثناء إقامتنا المؤقتة كلهـا في نجران كان من الواضح أنه لم يعثر على شيء يشبع شبقه وشهوته، ولذلك ثارت أعصابه وجُنَّ جنونه.

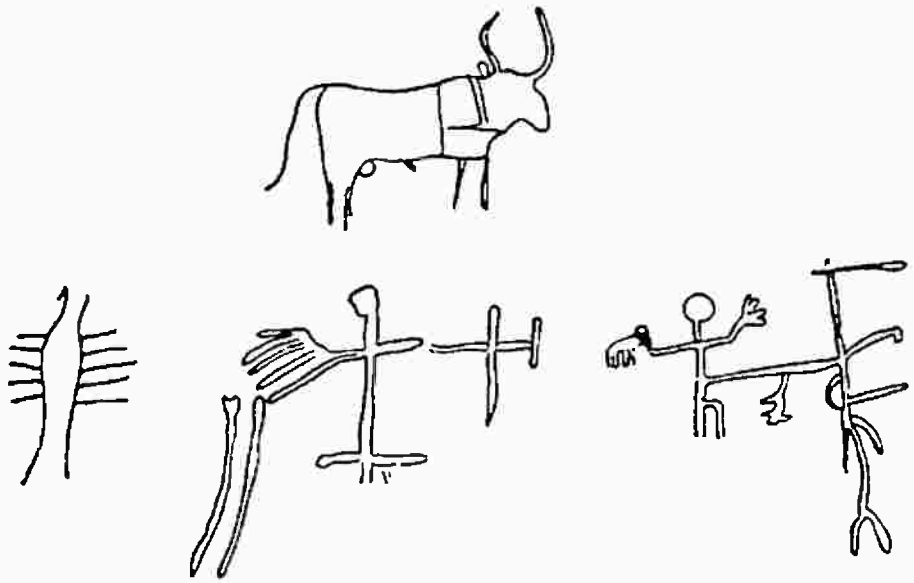

وفي حوالي منتصف الليل كان هناك لفـحة برد قارس في الهواء، وبزغ النهار وسط ضباب رملي كان قد بدأ يتناثر في السماء قـبل أن نتحرك حوالي الساعة الثامنة والنصف. وكانت الإبل سوف تسـير في طريقها العادي المباشـر عبر التلال، في حين كان على السيارات أن تدور مرة أخرى في دورة واسعة لتلتف حول تلك التلال. وقد صعـدنا في البداية أرضاً مـسطحة رملية بين سلســلة طيبة الاسم على يسـارنا وجبل المطابق الرئيس على يميننا إلى مضيق منخفض (بـين قمتين في سلسلة الجبال)، ووراءه يمتد ممـر واسع لأميال بين سـلاسل تلال متـوازية ذات ارتفاع عظيم. وقـبل أن نصل المضيق المنخـفض وعلى بعد حوالي مـيل أو أقل من معسكرنـا مررنا على نُصب من

الحجارة على الطريق، يعرف باسم «ردم الحد» وهو علامة الحدود بين قبيلتي يام ودهم. ومن المضيق المنخفض نزلنا على منحدر رملي وعر قليلاً ومتموج، إلى رأس الممر حيث انطلقنا هناك بسياراتنا بخفة ورشاقة ومرح حوالي عشرة أميال حتى وصلنا إلى صخرة هريرة الجرانيتية البارزة قليلاً. وفي هذه النقطة توقف خط التلال عن يمينه، وتحولنا من اتجاه شمال - شرق إلى الجنوب الغربي على مسار في أمواج رملية عظيمة نحو سلسلة جبال الهضبة. وكان سيرنا طيباً بشكل عام، على الرغم من وجود بعض البقع الوعرة على مسافات متفاوتة، وكم كنت سعيداً عندما - بدون حادث مشؤوم - وصلنا تلاً صغيراً مدوراً ومنخفضاً قريباً من طرف "الهضبة" التي ترتفع كتلها الصخرية العارية الكبيرة إلى حوالي ٧٠٠ أو ٨٠٠ قدم فوق الأرض المنبسطة. وفي ذلك التل الصغير عثرت على رسوم بدائية لرجل يحمل رمحاً وهو على ظهر حصان واثنين أو ثلاثة من النماذج الباهتة لتيس الجبل.

وقد اجتزنا الآن الجانبين الطويلين للمثلث متساوي الضلعين، وعدنا مرة أخرى إلى الطرف البعيد لقاعدته على الطريق الذي سلكته جماعة الإبل. وكان هذا الطريق يمتد عبر وادٍ مليء بالشجيرات بين سلسلة الهضبة العظيمة المنفصلة عن القسم الرئيس لمرتفعات اليمن، حيث يتدفق كلاً من وادي القعيف ووادي سلبا إلى أسفل حتى ينتهيا بصورة أو بأخرى في رمال الصحراء في نقطة بعيدة إلى الشرق بعد أن يتحدا ليكوّنا وادي اليتمة. وسرنا بمحاذاة حافة «الهضبة» نظراً لأن السير هنا كان يبدو أسهل من المشي بعيداً عنها في الوادي الذي يعج بالشجيرات، ووصلنا مخيمنا عند منتصف النهار في شعب وضاح بعد وصول الإبل إليه بدقائق قليلة فقط. وفي الحقيقة لم يكن آخر المتأخرين القليلين منهم قد أتى بعد، عند وصولنا المعسكر.

وكان سعدان قد احتفظ لي بكهف عميق في جانب التل بمستوى الوادي، وهنا هجعت في نوم سعيد عند القيلولة بعد غداء دسم من الجريش المطبوخ بالبصل وغارق بالسمن بصورة عظيمة. ولم يتناول جعمل، الحساس مثل معظم البدو الذين لم

تفسدهم روائح الأطعمة الأجنبية غير المألوفة، شيئاً من ذلك الطعام وآثر أن يظل طاوياً على الجوع. حتى ونحن بالسيارة وهو يجلس على المقعد الأمامي بجواري وأنا أقودها كان يلف غطاء الرأس (الشماغ) على فمه وأنفه ليتقي أدخنة البنزين التي كانت بالنسبة لي ضئيلة لا يمكن إدراكها. لقد كان فرداً غريباً تماماً، ولكنه كان دائماً لطيفاً ودمث الأخلاق كريمًا ميالاً للمساعدة، خبيراً في حدود معرفته الخاصة بعلوم الصحراء، ومع ذلك كان بطيئاً في الفهم بصورة متناهية، وغبيًا في حماقة. وبالرغم من ذلك كان يرشدنا إلى المناطق السهلة وهو يبدي إحساساً ممتازاً بمعرفة الطريق يكاد يكون خارقاً للعادة تقريباً.

وبعد أن أخذت قسطاً من الراحة بعد الظهر تسلقت أنا وجعمل قمة أحد الجُرُف الجرانيتية العظيمة في الهضبة الذي يرتفع حوالي ٦٠٠ قدم فوق معسكرنا. ولكي نصل إليه سرنا عدة مئات من الأقدام على ممر طبيعي يبلغ عرضه حوالي عشرة أقدام والذي تشكل نتيجة الانفصال الجزئي لخندق البارلت بين جدران من الجرانيت الصلب والمتماسك الحبيبات ذي لون يميل للحمرة. وكان يمتد في خط مستقيم إلى حافة التل في منحدر شديد، ويبدو تقريباً كما لو صنعته يد الإنسان. وخلفنا إلى الشمال كانت توجد عدة ذرى للقمة الجرانيتية الناعمة التي كانت تصل في ارتفاعها لحوالي ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم فوق الجرف الذي كنا به. وفي الثنية المعترضة يقع رأس وهد وضاح الذي ينغمس داخل الجبل في سلسلة من الدرجات العميقة مثل درج السلم، والتي يوجد في أحدها تجويف ضخم مليء بالرمل الذي يحتفظ بقدر وافر من الماء بصفة دائمة تقريباً. وعلى الصخور حول البركة عثرت على رسم تالف جداً لرجل يمسك رأس حصان، وكان هناك رسم بدائي آخر لرجل قد مد يديه يزيّن صخرة أخرى مجاورة، بينما يوجد بالقرب من كهفي تماماً مجموعة من حوالي عشرة قبور قديمة واضحة.

ومن هنا كان هناك مسقط منحدر آخر يؤدي إلى الكهف، حيث كان الوهد ينبسط في قناة دقيقة مليئة بالشجيرات والقيعان الجافة الصغيرة ومغطاة بأوراق الحشيش اليابسة.

ومن الجرف العالي نظرنا نحو الجنوب على بقعة جديدة من الأرض التي يخفيها عنا من هنا الجزء الرئيس من سلسلة جبال الهضبة. بينما كان المسار الشمالي الذي سافرنا عليه بالفعل قد اختفى عنا الآن بسلسلة الجبال الشاهقة خلفنا. وكنا نستطيع رؤية وادي اليتمة وهو يسير ملتوياً لمسافة بعيدة في الصحراء متجاوزاً ذُرى أم الشداد البارزة التي تغيّر لونها بفعل العوامل الطبيعية، ويقع خلفها سلسلة من الجبال البازلتية القاتمة حيث يكون جبل مُرة في المقدمة ويليه جامع والطويلة من ورائه، وقمم سلسلة جبال المعو الشاهقة في الأفق البعيد وراء تلك الجبال نحو الجنوب الشرقي. وبالقرب منا، وإلى البعيد قليلاً نحو الجنوب ترتفع الرؤوس الناتئة لكل من صخيبر وسويقة وقراء مع سلسلة جبال الوعير وقمة شري من خلفها على جانبي وادي خب العظم. وإلى البعيد ناحية الجنوب الغربي والغرب تمتد الجبال التي تحيط بعيون مياه السقبا الثلاثة وهي الصحفة والجب وصيح.

وفي مكان ما من هذا المسار بوادي اليتمة كان هالفي -الذي يعتري وصف رحلته قصور شديد في التفاصيل الجغرافية بشكل يثير السخط والغيظ- قد هجره مرشوه من البدو وتركوه يتجول في الصحارى وحيداً وقد أصابه الجوع والعطش إلى أن وقع على مخيم ضخم للبدو الرحّل حيث استطاع هناك أن يجلب معه مرافقاً جديداً -ولكنه كان مشاكساً- إلى نجران. وفي مكان ما بين هذه البقعة ومقصده في نجران يبدو أنه قد قابل قافلة آتية من حضرموت. وكان جعمل يقول: إن المسار الذي سلكته جماعة الإبل التابعة لنا يتطابق تقريباً مع طريق حضرموت، والذي لا يزال مطروقاً على طوله على الرغم من تقطع حركته، وما زالت علاماته يمكن رؤيتها أينما كانت الأرض خالية من الرمل بدرجة كافية لينطبع عليها أثر السير بصورة دائمة.

وعلى هذا الخط لا يكاد يوجد شك في أننا الآن نمشي فوق واحد من الطرق العديدة التي سلكتها تجارة التوابل القديمة بالعربية السعيدة. وكان هالفي يأمل أن يعثر على دليل لمرور إيليوس جاللوس وجيشه الروماني من خلال سيره في الدرب الذي يمتد من الجوف وعبر واحات خب حتى نجران. إن كلا الطريقين الخارجي والداخلي اللذين سلكتهما جنوب الهضبة يقعان إلى الشرق من طريقه، ولكني بكل تأكيد لم أجد ولو أثراً واحداً لهذه البعثة العظيمة والمدمرة في آن واحد. كما أن وصف سترابو لها، مع ما فيه من أسماء عديدة لا يمكن التعرف عليها الآن، يتعذر بصورة بالغة التوفيق بينه وبين الطبوغرافيا الحديثة لهذه المنطقة. فلقد تغيرت بلا ريب أسماء الأماكن مع تعاقب القرون الغابرة، ويبدو من المحتمل علينا الانتظار الى أن يتم اكتشاف خريطة حميرية أو معجمٍ جغرافيٍّ قبل أن نتمكن من بذل أية محاولة لحل ألغاز سترابو وبليني.

وقد بدأت جماعة الإبل في الارتحال عند الساعة الثالثة عصراً، ووقتها شرعت أنا وجعمل في ارتقاء الجبل. وعندما عدت للمعسكر لم تكن الساعة دون الخامسة مساءً بكثير، ولم يكن لدينا وقت نهدره سدى قبل بدء المسير. وتقدمنا في البداية بسهولة كافية فوق سهل ثابت مؤلف من صخور رملية ذات حبيبات خشنة وتتناثر به أشجار السنط على طول الضفة اليسرى لوادي القعيف. وأصبح سطح الأرض فيما بعد متموجاً بموجات الرمل المنخفضة، وتنتشر فيه شجيرات الراك التي تنمو على التلال المنخفضة. وكان هذا علامة بداية مجرى قناة اليتمة عند التقائها هنا بأودية سبا والقعيف الموازية لها. وبعد ذلك بقليل عبرنا الوادي وتقدمنا في اتجاه الجنوب على طول خط التلال عن يميننا. وعبرنا قناة مدرك وهي في اتجاهها للالتقاء بوادي اليتمة، بالقرب من نقطة بروزها من هذه التلال. وكان الشفق قد أرخى سدوله علينا فور دخولنا وسيرنا في قناة وادي قراء الرملية باتجاه الغرب. وأمسى الآن من الصعوبة بمكان أن نرى أمامنا بدرجة كافية لنسيطر على مسارنا، ولحظنا السعيد -أكثر من مهارتنا- يرجع الفضل في تفادينا الغوص في الرمال. وكنا ننوي الوصول إلى بئر قراء

وهي على مسافة ليست قصيرة من هنا في أعلى الوادي، حسبما اتفقنا مع جماعة الإبل، بيد أن القدر تدخل مرة أخرى وأنقذنا من ذلك المجهود العقيم. وفي نتوء كبير من الوادي لاحظنا واتجهنا فوراً نحو نار معسكر وحيد، لنكتشف وجود خيمة فريدة تسكنها عائلة من قبيلة الصيعر تتكون من رجل ذي هيئة رائعة ولحية كثة ضخمة سوداء وزوجته الكبيرة قليلاً في السن وهي تحمل رضيعاً بين ذراعيها، ناهيك عن قطيع الماعز الصغير. ويبدو على الأرجح أنهم لم يشاهدوا أبداً سيارة من قبل، ولكنهم لم يرتاعوا كثيراً من ذلك الشبح المتوحش الذي هبط عليهم من الظلام. وعلى أي حال فقد استقبلونا بقلوب مرحة وكرم وفير، وأخبرونا في الوقت نفسه أنه لا طائل من الذهاب للبئر إذ كان جافاً. وكان ذلك بمثابة لطمة لنا، ولكنا شعرنا بالراحة قليلاً عندما سمعنا بوجود ماء في صخيبر على الرغم من أننا سوف نضطر للانتظار حتى الصباح كي نتمتع به . وحتى نحقق أقصى فائدة من هذا الموقف فقد خلصنا من كرم الوفادة الذي قدمه لنا علي، ذلك الرجل العملاق ذو اللحية السوداء - وقدنا سيارتنا إلى البعيد قليلاً في واد جانبي يتصل بوادي صخيبر خلف سلسلة الجبال. وهنا نصبنا معسكرنا بأفضل صورة استطعناها في الظلام انتظاراً لجماعة الإبل، التي لم تصل إلا بعد الثامنة مساءً. وفي الوقت نفسه تبعنا علي ومعه تيس لعشائنا، وقد كافأناه على ذلك بشكل مناسب، وقد ساعدنا في حينه على طبخه وأكله.

وكان هو وعائلته أول الكائنات البشرية التي صادفناها منذ خروجنا من الخضراء، على الرغم من أن جميع الروايات تذكر أن معظم الآبار في هذه المنطقة المجاورة لطريقنا يوجد بها مجموعة من البدو. وبينما كنا نجلس ننتظر العشاء ووصول رفاقنا فتحت جهاز المذياع لتسليتنا، وجلس علي مسحوراً بتلك الأصوات التي تتحدث باللغة العربية وتخاطبه من أقصى أطراف العالم. ولسوء الحظ، أفسدت هذه المتعة شيئًا ما نتيجة الظواهر الجوية الكهربائية ولم أكن قادراً على معرفة إشارة الوقت التي اعتدت عليها من القاهرة أو القدس. وعلى أي حال كنت هنا في المكان نفسه

عندما سمعت إعلان تعيين (هيئة ملكية) للنظر في مشكلة فلسطين، وكان اللورد بيل والسير هوراس رومبولد أكبر شخصيتين فيها. وفي الحقيقة كنت خلال رحلتي الطويلة قادراً على متابعة أخبار العالم، وأستمتع ببعض الاسترخاء من نوع غير ذي أهمية عندما أشعر أنني أميل لذلك. وكان معي أيضاً مجموعة هائلة قديمة من جريدة التايمز لأقرأها في أوقات الراحة. وفيها الكلمات المتقاطعة اليومية التي كنت أقوم بحلّها كي تطرد اللوغرتيمات والحسابات الفلكية من رأسي تمهيدا للنوم.

وخلال سيرنا بعد الظهر أدركت فجأة أن السيارة الثانية، وهي شاحنة نقل مفتوحة تحمل أمتعتي وأربعة أو خمسة رجال، لم تكن تتبعنا. وقد توقفت فوراً انتظاراً لها، وانقضى وقت طويل قبل أن نراها أخيراً قادمة في طريقنا. لقد نفد منها الوقود بصورة مثيرة للدهشة، والأسوأ من ذلك أنه ليس معها احتياطي على متنها، ولذلك قام محمد بتفريغ صفيحة من الكيروسين في الخزان ومشى بها الاثني عشر أو الثلاثة عشر ميلاً الباقية حتى لحق بنا بلا صعوبة.

وفي الصباح الباكر كان المعسكر يضج بالحركة والنشاط لقيادة الإبل إلى البئر لتنال ما تحتاجه بشدة من ماء تروي به ظمأها. وقد تبعتهم سيراً على الأقدام حتى الوهد الضيق الذي يمتد إلى ما يزيد على ميل إلى نقطة يوجد عندها مهبط سهل وقصير إلى بئر صخيبر في نتوء من الوادي المطوّق بالصخور. وهنا وقفنا مشدوهين نراقب منظراً مزدحماً، فقد كان هناك جماعة من عرب دهم من قرية الحزم في الجوف تسقي الأغنام والماعز والإبل. وكان معظم الجماعة فيما يبدو من النساء إلا أنه يوجد معهن ثلاثة أو أربعة رجال. كانت بعض النساء شابات وفاتنات بدرجة كبيرة، ولذلك سرعان ما قام فرج -الذي كان يرافقني- بتجاذب أطراف الحديث معهن. وقد تم الترحيب بي وسط هذه الدائرة الفاتنة بسلطانية مليئة حتى حافتها بلبن الماعز، وقد كافأت البنات عليها بقطع من الفضة. ولكن انتباهي سرعان ما انصرف عنهن باكتشف نقوش على الصخور المحيطة بنا، وقد مضيت قدماً نحوها لكي أنسخها، بينما

ظللن يثرثرن عن نقوش أخرى وأفضل من هذه موجودة بين الصخور والآثار في وطنهن بالجوف.

وانتهت مداعبتنا، وعدنا للمعسكر لنجد أن الطباخ قد انتهز فرصة تأخرنا وقام بإعداد الغداء. وفي الوقت نفسه كان محمد بن قنيبر من قبيلة الصيعر والذي كان أمير نجران قد أوصى به مقدماً ليرشدنا ويفسح لنا المرور بسهولة وحرية في منطقة قبيلته، قد وصل المعسكر لينضم للجماعة، وكان أبوه، علي بن قنيبر، شيخاً لقسم من القبيلة ذي مقام عظيم وكان في ذلك الوقت غائباً في زيارة للرياض لمقابلة الملك. وكان محمد رجلاً عذب الحديث، في حوالي الثامنة والعشرين أو الثلاثين من عمره، رقيق البنية، وتنقصه القوة، ويبدو أنه مصاب بالسل ويظهر أن فخذه من قبيلة آل حنيبر قد هاجر بشكل دائم تقريباً إلى المنطقة المجاورة لنجران، وهكذا اكتسب الجنسية العربية السعودية.

وكان الوقت قد بلغ الظهر بالفعل عندما انتهينا من الغداء، وبعدها ركبنا السيارات وبدأ السير لإعادة تتبع خطواتنا التي مشيناها الليلة الماضية على خط وادي قراء حتى النقطة التي دخلناه منها. وكان هناك عدد لا بأس به من أشجار الأثل والسنط على طول القناة، ولاحظت عدة أسراب من طائر الرقراق، وهي بلا شك أوائل الطيور المهاجرة في الخريف، على الرغم من أن الوقت (٣٠ يوليو) لا يزال مبكراً بصورة مثيرة للاستغراب. وربما تمكث بعض هذه الطيور لتتناسل في الأجزاء المناسبة من جبال اليمن أو تتخذها مأوى لها مثلما فعل الشقراق الحبشي في سهل تهامة. وكانت نباتات الوادي تضم شجيرات الحرمل والمرخ مع كثير من حشيش الثمام الخشن. وقد أطلقت رصاصة على طائر مغرد واكتشفت أن رجليه كانتا مكسورتين وإنه بلا ريب قد تخلف عن رفاقه المهاجرين للشمال في أوائل الصيف نظراً لإعاقته.

إن وادي قراء عند خروجه من التلال - يسير بين ضفتي رمال يرتفعان حوالي خمسة عشر قدماً. وقد لزمنا الضفة اليسرى لنتمكن من السير على سهل رملي واسع

وذي أرض ثابتة وجيدة عند التقائه بوادي اليتـمة خلف رابية طويلة ومنخفضة ومغطاة بالرمال وتتكون من الصـخور وتسمى (لغدم). وعلى البـعد أمامنا ظهر تـل (الفهود) الصغير، الذي يختفي في رمله وادي اليـتمة. وقد رأينا طيور الحبارى والغزلان هنا: وانطلق جعمل على قـدميه يطارد خلسة واحدة من النـوع الأخير، ولكنه لم ينجح. وقد حاولنا أيضاً اصطياد أربعة من طيـور الحبارى تكمن بين روابي "العَبَل" بالسهل. ولكن كلما اقتربت منهـا السيارة بصورة مزعجة أطلقت لجناحـيها العنان. وبعد ذلك تركنا الصيد والمطاردة واتجهنا نحو أكمة (أم الشداد) الصخرية الناتئة. وهكذا أتينا على الضفة اليسرى لـقناة (الفرش) التي تغطيها بكثافة التلال الرمليـة المتحركة، وهي أحد الفروع التي يصب فيـها وادي خب في الصحراء. هذا الفـرع يمتد على طول الجانب الشمـالي لأم الشداد ومرة، بينما يخرج الخط الرئيس للوادي إلـى الرمال على طول الحافـة الجنوبية لسلسلة جـبال الطويلة. وكان هناك في هذه الـقناة الكثير من أشـجار المرخ التي تنمو نمواً وفيراً علاوة على غـابة كاملة من أشجار السنط الطويلة من النوع على شكل المظلة. وفي هذه الغابة رأينا مرة أخرى عدداً قليلاً من طائر الشقراق. وقد سرنا في سهل رملي به خطوط من الحصباء لنطارد غزالاً لمسافة معينة بدون نجاح حتى حافة القناة الرئيسة لوادي خب.

لقد كانت عبارة عن دلتـا واسعة أكثر من مجرد قناة، ويتناثر فيهـا لمسافة بعيدة وعريضة حطام الأشجار والشجيرات التي جرفتها السيول. وهنا كان السير وعراً، إلى أن أتينا على مسـار واسع مليء بالشجـيرات والأشجار، الراك والـعبل والسنط، عند حافـة التلال التي يخـرج منها الوادي، وهو الآن مـثل قاع نهر واضح المـعالم، إلى السهل مع حزمة عريضة من التلال الرملية المرتفعة والجميلة على طول ضفته اليسرى. وكانت جمـاعة الإبل قد وصلت بالفعل إلى المعسكر هنا، نـظراً لأنها سلكت طريقاً مباشراً بدرجة أكـبر، وقد قضيت طول فترة العصر حتى الغـروب أتجول بالغابة بحثاً عن الطيور. وقد اصطاد فرج بالبندقـية اثنين من الأرانب البريّة في الوادي، في حين

وجدت الأشجار قد غزتها أعداد كبيرة من الطيور المغرّدة مثل (Orphean War-bler) والتُمير النيلي الصغير (Nile Valley Sunbirds) والبلابل والثرثار. وقد رأيت أيضاً بعض طيور الكروان الجبلي (Stone Curlews) كامنة بين الشجيرات على مقربة شديدة من معسكرنا.

ونحن الآن في حدود مسافة قريبة من آخر مكان للسقيا قبل عبور الصحراء. ولذلك تقرر أن نحاول الوصول إليه قبل غروب شمس اليوم التالي، وبناءً عليه انطلقت جماعة الإبل في المسير عند الساعة التاسعة مساءً، وكان هذا أول مرة تسير فيه بالليل طوال الرحلة. وكانت قبل مغادرتها قد سبقها تغيير كبير في توزيع الأحمال؛ فقد كانت بعض الإبل النجرانية تبدو عليها -حقيقة- علامات الذبول وعرض الهزال بالفعل، على الرغم من تقدمنا في السير بتمهل شديد، وسيكون من الضروري شراء قليل من الحيوانات الإضافية في الشضيف لمواصلة الرحلة الطويلة حتى العبر. وقد تم إحالة الشجار إليّ لإصدار حكم فيه ولكني رفضت التدخل في الأمر على أساس أن ترتيبات الحمولة من مسؤولية سعد. ولا أدري كيف تمكن من حل لمشكلة، ولكن كم كان الوضع ساراً جداً وهادئاً عندما رحلوا عنا، وتركوا جماعة السيارات الصغيرة لتتبعهم في الصباح.

وخلال الليل كانت السماء ملبدة بالغيوم، وفي الصباح استيقظت حقيقة بزخة من المطر، التي مرّت -على أي حال- قبل ريح شمالية معتدلة، غير متوقعة، ومحملة بالتراب. وكان الجزء الرئيس العظيم من جبل يرتفع حوالي ألفي قدم فوقنا، وليس ببعيد عنا، والوادي يمتد على طول حافته الجنوبية صاعداً للأعلى نحو قرى خب التي تبعد عنا بمسيرة نصف يوم في اتجاه الجنوب الغربي؛ ولذلك سيكون من الممكن، طبقاً لما ذكره ناصر بن شماخ وهو رجل كبير السن، وضئيل من فخذ المرادعة من قبيلة نهد ويدعي أنه مواطن من عياد، أن نصل الشضيف عن طريق قرى خب وعلى أي حال فقد قررت ألا نضيع الوقت سدى في هذا الانحراف عن

الطريق، حيث إن الحكومة اليمنية كان يمثلها في هذه المنطقة القاضي، والذي قد يعد أن من واجبه أن يحجزنا بانتظار وصول تعليمات إليه من قيادته. ومثل هذه الحالة الطارئة لا أستطيع أن أتحمل مخاطرها في هذه المرحلة من بعثتي، وبناءً عليه قررت أن أدع خبًا لزيارة ممكنة أخرى في طريق رحلة عودتنا التي لم أحققها في الواقع. وقد واجهنا حاجز رملي هائل يسمى داعر الذي يبرز نحو الشرق من حافة مسار التل للجنوب منا وهذا أدى الى انحرافنا عن دربنا والدخول في المرتفعات التي وجدنا بها طريقاً سهلاً في سلسلة من الأودية بين سلاسل التلال المتناثرة. وعن يميننا تقع كتلة جرانيتية بارزة ورائعة ومرتفعة نسبياً وتسمى الحجلى. وكانت قمتها منشقة الى جزأين بينهما فجوة ضيقة بعمق مئة قدم. وخلفها أتينا على امتداد وادي سرحان المليء بالشجيرات حيث ينبسط مقابل رمال داعر المرتفعة. ويشق طريقه بينها وبين تلال حسرج الصغيرة حتى يلتقي بوادي خب. وقادنا مجاز رملي، عامر بشجيرات (العلقى) الخضراء رائعة المنظر (والعَبَل) وافرة النماء، إلى الكتف الداخلي لجبل داعر الرملي والذي يمتد من هنا في خط مستقيم ويصل ارتفاعه حوالي خمس مئة قدم وله حافة حادة مثل نصل السكين، ويستمر في سلسلة طويلة من التلال الرملية الجميلة مسافة بعيدة في الصحراء. وكان من الضروري أخذ قليل من الحيطة والحذر هنا في التعامل مع الحزام المنخفض من الرمال الناعمة الذي يمتد على طول مسارنا. وكان هناك أيضاً بعض منها في داخل الوادي الضيق. ولكننا نفذنا منها دون حوادث حتى أتينا إلى الأرض الأكثر ثباتاً تحت القمة الشاهقة لجبل محجوبة حيث كان درب حضرموت يحدده وجود حزام من آثار السير الملتوية والمحفورة بعمق في الأرض. وصرنا نمشي الآن في خط مستقيم نحو الشمال الشرقي، وكان سيرنا هذا رائعاً في ممر واسع من الرمال الثابتة مع الحافة العليا لوادي داعر عن يسارنا وحاجز رملي منخفض يطوقنا عن جهة اليمين. ونتيجة لسيرنا بسهولة ويسر فقد استطعنا مطاردة ذوجين

منفصلين من الغزلان اللذين انطلقا يعدوان أمامنا، واضطرا أن يجريا في خط مستقيم أمامنا نظراً لوجود رمال عاليـة على كلا الجانبين. وكان الزوج الأول من نوع (إدمي) الشائع، وقد هرب منا مرتين جرياً جيئة وذهابا. أما الزوج الآخر فكان من نوع الريم أو العفـري وكان جعـمل قد اصطاد الأنثى التي زودتنا بوجـبة لحم شهي عـند توقفنا وسط النهار تحت سلسلة جبل المعو. وبعد انطلاقنا حوالي عشرة أميال على طول هذا الممر انجرفنا قليلاً للجنوب عن الشرق لعـبور السهل الذي يفصل (داعر) عن (المعو). وهنا أدى وجود غطاء نبـاتي للأرض، مثل (العَبَل) فـوق كتل منخفـضة من الرمل، و(النصي) بل وحتى بعض النبـاتات الزهرية الصغيرة الـصفراء الجميلة، إلـى صعوبة السير. ومقـابلنا ظهرت فتحة في سلسلة المعـو الطويلة والتي سوف تقودنا إلى وادي أمواه[1] من خلفها. ولكن الغزال، الذي كان هذه المرة من نوع العفري والذي صنّف بأنه نوع فرعـي جديـد[2] اعـتمـاداً على لون جلودها ورؤوســـها التـي أرسلتهـا للمتحف البـريطاني منذ سنوات مضت، قد عطل خططنا. فقد طاردناه لمسـافة بعيدة على طول مقدمة سلسلة المعو نحو الغرب. وقـد نجح جعمل فقط في إصابته بجرح، ولكنه انطلق يعرج في الأرض الوعرة عن يميننا، وواصلنـا مطاردته فيها، ولكن ذلك كان غير مجد من الناحية العمليـة. وعلى أي حال فقد جرى جعمل على قدميه وراء الحيوان، بينما أخلد الآخرون للراحـة عند منتصف النهار. وخلال ذلك تناولنا، حتى الشبع، لحم الطريدة المشوي على الجـمر مع الخبز والشاي. وقد وفـرت لنا السيارات ظلاً ظليلاً من الشـمس التي كانت في هذا الوقت من السنة دانية تقـريباً من الرؤوس عند الظهر في هذه المناطق الجنوبية. وبينما كنت أرقد بجوار سيارتي على بعد حوالي عشـرين ياردة من الشاحنة التي تجتمع خـلفها باقي الجمـاعة يطبخون ويغنون، فـقد

(١) ورد اسم هذا الوادي بهذا الـرسم لدى الهمداني في صـفة جزيرة العـرب، تحقيـق محمـد بن علي الأكوع، (المراجعون).

(٢) غزالة سعودية. (المؤلف).

ظننت أني سمعت أصواتًا آتية من حافة منحدرات المعو على بعد حوالي أربع مئة ياردة. وعندما أطرقت السمع ،منصتاً باهتمام استطعت بسهولة أن أتبين الكلمات التي تقال، وأدركت أنها كانت مجرد حدىً واضح جداً ومميز للثرثرة المنبعثة من خلف الشاحنة. وكان الصوت يبدو آتياً من أسفل قاع المنحدرات الصخرية، التي كانت تشكل نوعاً من البهو لرجع الصدى الهامس. وفي وقت متأخر قليلاً بعد الظهر لاحظت أن هذه الظاهرة قد ضعفت من ذي قبل بدرجة كبيرة. ورجع جعمل في الوقت المناسب، وقد بلغ منه التعب والعطش مبلغاً، ولكنه كان يحمل هيكل طريدته التي تم سلخ جلدها حتى أضمه لمجموعتي، قبل أن نستأنف رحلتنا فوراً بعد الساعة الثالثة عصراً.

وسرنا في وادٍ شديد الوعورة، يفوق دروب السير في حضرموت، حتى نفذنا خلال حاجز المعو. وعلى كلا الجانبين كانت الجُرف العظيمة والقاتمة ترتفع عالياً فوقنا إلى أن أطللنا على سهلٍ واسع فيه تلال تنتشر فيها شجيرات وادي أمواه وتمتد عبره نحو الصحراء. وإلى البعيد بين الرمال في جهة الشرق ترتفع سلسلة جبال الحيض التي كانت أول علامة أرضية لنا خلال أول يوم في عبور الصحراء. وبعد مسافة للأمام قليلاً استطعنا أيضاً أن نرى شريطاً مظلماً من التلال الذي افترض جعجل - بقليل من الشك- أنه جبل الريان وهو الملاذ المفضل للبقر الوحشي.

وعند حافة وادي أمواه توقفت لألقي نظرة شاملة لمشهد التلال السفحية التي تحد الصحراء، التي سوف ندخلها حالاً. وإلى البعيد خلفنا وقفت الشاحنة لعطل في المحرك، وكان علينا انتظار وصولها. إن الاتجاه العام للوادي، الذي كانت قناته واضحة بصورة جيدة ويمكن رؤيتها لمسافة بعيدة في اتجاه المجرى وعكسه، كان يسير من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وكان قاعه مغطى بصورة كثيفة نسبياً بالعَبَل والمرخ والراك، ولكن لم توجد آبار في طوله كله. وعلى بعد حوالي ميلين عكس تجاه المجرى يلتقي بوادي ملحة الذي يلتقي هو الآخر فيما بعد بقناة غمير. وتوجد بئر

واحـة في مجرى وادي ملحة. وبعد فم وادي ملحة يتشكل وادي أمواه من خلال التقاء ثلاثة أودية هي الشضيف والعريجا وشقبان ويوجد في كل واحد منها بئر للسقيا.

ونظراً لهذا الالتـقاء الثلاثي انطلقنـا في هذا الوادي عند استئناف سـيرنا. ولم نكن مضطرين أن نسير لمسافة بعيدة، فقد كانت المسافة كلها حوالي ثلاثة أميال فقط، ولكن كان هناك بعـض الرقع الرملية الصعـبة في القناة. ورأينا نخلة وحـيدة من نوع الدوم، وكان ذلك بمثابة تغيير نرحب به في نبـاتات الوادي العادية. وبعد مسافة قليلة تمر القناة بين جُرُف شـاهقة الارتفاع بهـا نقوش قليلة محـفورة في الصخـر الأسود. وسرعان ما وصلنا إلى نقطة الالتـقاء. ويأتي وادي شقبان، وبه بئر يبلغ عمـقها عشر قامـات على مسـافة ما عكس اتجـاه المجرى، من جـهة الجنوب ووادي العـريجا من الغرب. وتحولنا للشـمال في قاع وادي الشضيـف وسرعان ما أقمنا مـعسكرنا بجوار عيـون الماء الضحلة الواقعـة في نتوء واسع من الوادي حيث تـنتشر فيـه مجمـوعات صغيـرة من شجر الدوم هنا وهناك. وكانت مـجموعة الجمـالة قد وصلت المكان منذ زمن طويل، وهكذا اكتـملت بنجاح أول مرحلة من رحلتنا. وقـد كانت هذه المرحلة مملة شيئاً مـا، إلا من وجهة النظر الجغرافية. فلم نر كـائنات بشرية إلا قليلاً، ولم نرَ منازل مأهولة بالبشر على الإطلاق، حـتى الحيوانات لم نرها إلا نادراً، مثل قليل من الأرانب البرية والغـزلان، والطيور نفسهـا لم تكن واضحة ومميزة، والحـشرات كانت أيضاً شحـيحة. وقد كانت الأرض بشكل عام أرضـاً ميتة، مهجـورة، بين الصحراء القاحلة وغطاء العشب.

وبعد الغروب فـوراً نشطت ريح غربية غير سـارة، وغمرت كل شيء بالرمل. وعند حلول وقت العـشاء تقـريباً هطلت رشـة خفيـفة من المطر لدقـائق قليلة، وفي الساعة العاشرة ليلاً تلقينا مطراً آخر كان كافـياً أن يجعل الأشياء غير مريحة لبرهة من الزمن، ولكنه لم يكن كافيًا ليفيد تلك المنطقة الظمأى بأي صورة حقيقية. وإلى البعيد نحو الجنوب، كانت الغيوم الكثيفة تزمجر بالرعد وتومض بالبرق.

وجاء حسن بن هضبان وهو شيخ كبير من قبيلة دهم وذو مظهر مميز لمقابلتنا من معسكره بجوار عين الطرفاء بوادي العريجا وكنا قد علمنا به في نجران كأحد المجندين المرغوبين الذين يمكن ضمهم لجماعتنا إن استطعنا ضمان خدماته. ولم يكن هناك أي صعوبة في ذلك بالتأكيد، حيث إنه هو نفسه تطوع لمصاحبتنا وقدم لنا "الذلول" الخاص به. كما تحمل أيضاً ترتيبات شرائنا لبعض الحيوانات الإضافية لتحمل الأمتعة ولكي تساعد في تخفيف الحمل عن إبل نجران التي أصابها التعب بالفعل، وكان من ضمن الأمتعة زيادة كبيرة في إمدادات الماء المعبأ في براميل الوقود الفارغة والقرب المصنوعة من جلود الأنعام تكفي لأربعة أو خمسة أيام التي سوف نقضيها في عبور الصحراء. ولخلق توازن مع ارتقاء ابن هضبان إلى موقع رفيع في الجماعة، لم يظهر عبدالله بن مدعار وهو شيخ من الكرب وكان تم تنبيهه مسبقاً باللحاق بنا هنا. وعلى أي حال فقد جاء اليوم التالي، ليختفي مرة أخرى بعد أن أعطانا وعداً غامضاً بأنه سيعود في الوقت المناسب عند بدء رحلتنا في الغد. وجاء الظهر قبل أن يصل مع ستة رجال آخرين من قبيلته الذين كان من الواضح أنهم يشمون رائحة الحصول على وظيفة مريحة. واتفقت أنا وسعد على أننا لسنا بحاجة لعنصر من الكرب بهذا العدد الكبير لكنه يجوز لهؤلاء الرجال الإضافيين أن يرفقونا إذا استطاعوا توفير مطايا لأنفسهم وإحضار قربهم الخاصة بهم للتزود بالماء. ولم يكن هناك صعوبة في ذلك، ولكن الرجال طلبوا دفع جزء من خدماتهم مقدماً كشرط للحضور. وقد اعترضت على هذا بصورة قاطعة، وذاب الرجال في غياهب المجهول بلا تطفل، وقد أثلج صدري ذلك كثيراً. وكان ابن مدعار رجلاً في حوالي الستين من العمر، ذا لحية بيضاء تماماً وكثّة وملامح قوية تنبض بالحيوية والنشاط. وكان لا يعيب مظهره سوى عينيه المغمضتين بدقة، حتى ليبدو من الناحية العملية أنه أعمى وذلك لإصابته ببعض أمراض العيون. وكان يأمل بحماقة أنه قد يكون عندي دواء لها بين أمتعتي. كان حديثه فظاً ومتحدياً، ولكنه كان لديه روح طفل أفسدها فقط حب

المال واكتنازه وبخل الصحراء الذي يتعذر تفاديه. وقد أحضر معه -كما فعل ابن هضبان- أولاده الصغار وهم صبية في العام الثاني عشر أو الثالث عشر من أعمارهم - ليتعلموا التكسب في الصحراء، وليعملوا مثل خدم شخصيين. ولكم تأثرت كثيراً لرؤية عناية الآباء المفرطة، التي تصل إلى حد الهم بإطعام ذرياتهم ، لا سيما عندما يكون الصبية غائبون مع الإبل التي ترعى ويخفقون في الرجوع وقت الطعام. وفي مثل تلك المناسبات كانت هناك صينية مليئة بالرز مع قطعة كبيرة من اللحم جاهزة لهم فور عودتهم مباشرة.

وتصرف قناة الشضيف منطقة تجمع مياه واسعة في منطقة سفح التل. ومن الواضح أنها تتعرض على فترات متقطعة للسيول، نظراً لأن كثيراً من شجر الدوم في منصقة البئر كان متكسراً من جذوره. وفي الحقيقة كان الوادي أسفل البئر مغطى بحطام متناثر من الأشجار وغيرها. والبئر - أو بالأحرى النبع (من النوع المعروف باسم فضية وجمعها فضايا) عبارة عن حفرة غير مبطنة بجانب قاع المجرى وممتلئة بالماء على عمق عشرة أقدام من طبقة الحصى التي تغطي القاع الصخري بطبقة رقيقة حتى لا يكاد يرى إلا جزء منه. ويوجد الماء بصفة شبه دائمة تقريباً. والنتوء الدائري للوادي في هذه النقطة يزينه اثنان أو ثلاثة من أشجار الدوم كاملة النمو، ورقع عظيمة من أشجار البلميط وهي نوع من النخيل قصير ومروحي السعف، مع انتشار شجر السنط. وحوله ترتفع التلال المنخفضة التي لا يزيد ارتفاعها عن مئة قدم فوق مستوى الوادي، وتشكل جزءاً من الأرض الواسعة المرتفعة المحيطة به والتي تحتوي أيضًا على الكثير من قنوات السيول المشابهة مثل العريجا وشقبان وملحة وغيرها هذه البقعة المحدودة الارتفاع، تمتد لمسافة ما إلى الغرب، ولكنها تنفصل عن سلاسل جبال اليمن الرئيسة بقناة الجوف التي تجري جنوب شرق من منابعها في الجرف الرئيس بالمنطقة المجاورة لصعدة. إن الصخور على الضفة اليسرى لوادي الشضيف، الذي ينحدر إلى أسفل في انحدار شديد حتى نقطة الالتقاء الثلاثي التي ذكرناها من قبل،

كانت محفورة بالعديد من النقوش العربية البدائية. وفي الزاوية المكوّنة بالتقاء قدتي الشضيف ومَاوة توجد قمة صخرية متوّجة آثار قلعة قديمة مبنية من الحجارة الجرانتية غير المصقولة وتتكوم فوق بعضها بدون مونة، وكانت القلعة دائرية الشكل، ويبلغ قطرها حوالي ثلاثين قدماً. وقد كانت وظيفتها -بلا ريب- حراسة منطقة التقاء الأودية الثلاثة من تدخل العدو.

وعند سفح التل يوجد عدد هائل من الأكوام من الصخور المرصوفة بدون ترتيب وبشكل عشوائي، والتي قد تكون إما قبوراً أو نصباً تذكارية، وعلى مسافة حوالي ١٢ أو ١٣ خطوة منها يمتد قوس ضحل من البناء بطول ٢١٠ خطوة، ويسير مع المحيط المتعرج للتل على طول حافة الوادي، ولكنه يبدأ وينتهي بدون أي غرض واضح. ولم أستطع أن أقاوم النتيجة المبدئية التي توصلت إليها وهي أن هذه الآثار تمثل آخر دليل باق على وجود سد قديم هنا على عرض رأس وادي الأمواه وأسفل الملتقى الثلاثي، مع قناة تابعة له تجري على طول جانب التل بمستوى مرتفع قليلاً. وكان الحوض عند الملتقى يقوم بوظيفة حجز قدر عظيم من مياه السيول، ولكن ما هو الغرض من مثل هذا التخزين؟ هذا ما لم أستطع فهمه أو تصوّره. ولأقصى مسافة أستطيع رؤيتها أمامي لا توجد رقعة صالحة للري على كلا جانبي الوادي لأميال كثيرة، ويبدو أن الغرض من الخزان كان لمجرد ضمان التزود الدائم بالمياه لسقيا الإبل والأغنام وما شابه.

والحقيقة المثيرة للفضول والتساؤل عن هذه الآثار أنه يوجد بين الشظايا غير المستوية للصخور المحلية عدد ضخم من طوب الحجر الجيري المشذب بطريقة جميلة

ويبلغ طوله حوالي قدمين وسمكه قدم واحدة. ومن المؤكد عدم وجود أي حجر جيري في أي مكان بهذه المنطقة المجاورة، وتزعم الأسطورة المحلية أن هذا البناء الرفيع قد انبثق عن سد مأرب المشهور. وطبقاً لما قاله ابن هضبان أنه كان في بعض هذ الطوب نقوش، ولكنّا فشلنا في العثور عليها وربما تكون هذه (الحجارة المكتوبة) قد نزعها البدو لبيعها للتجار في صنعاء، وإلى هناك أيضاً، كما قال ابن هضبان، ذهب تمثال صغير لجمل عُثر عليه بين هذه الآثار نفسها. وهذا التمثال جلب لمكتشفه المحظوظ مبلغاً هائلاً قدره عشرة ريالات.

وبعد الفحص الشامل لهذا الموقع المحير، انطلقت أنا وابن هضبان وابن قنبير في قناة وادي العريجا لرؤية الصور والنقوش المحفورة على صخورها. وعلى مسافة ميل ونصف من الالتقاء الثلاثي أصبحت القناة غير صالحة بشكل واضح تماما لمرور السيارات نتيجة لوجود حاجز طبيعي من الصخور يمتد من جانب إلى آخر لمسافة ما.

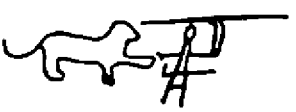

وقد سرنا نصف ميل آخر إلى حفرة الماء المسماة عصبة وفيها عمق الماء لا يبلغ إلا قدماً واحدة فقط في القاع الرملي. وفوقها مباشرة يوجد خط من الجُرُف الجرانيتية السوداء الشاهقة، الذي يعرف باسم سيق المري على طول الضفة اليسرى للقناة، وعليه علامات الماء الحميرية مثل O أو O محفورة به، مع اثنتي عشرة نقطة تشير إلى عدد الخطوات المزدوجة بينها وموقع ينبوع الماء. وكانت هذه أول تجربة لي أعرف فيها ذلك النظام الذي يشير إلى وجود الماء ومكانه الدقيق. وطبقاً لأقصى حدود علمي لم يلحظ أي رحالة سابق في الجزيرة العربية أو في أي مكان آخر مثل ذلك النظام، ولكنه يبدو شيئاً عادياً في عصور سبأ الباكرة. وعلى مسافة قليلة فقط، وفي

الجانب نفسه من القناة توجد واجهة كبيرة لحائط صخري به عدد من الكهوف على مستوى الأرض. وعلى الجانب الآخر لمسافة ما تمتد هضبة العريجا نفسها مع وجود مجرى مياه منتظم تحت السطح الرملي ببوصات قليلة فقط وذلك على امتداد سفحها. وكان هناك أيضاً عدد من النقوش القديمة والعديد من علامات الماء، بينما توجد عدة أشجار من الدوم ومجموعات من شجر البلميط في منطقة متسعة من القناة فوق الصخور قليلاً وأسفل مدخل شعيب تغلل من الضفة اليمني.

وقد سرنا حوالي نصف ميل آخر أو أكثر قليلاً إلى أن وصلنا إلى أول ينبوع من ينبوعي الطرفة الاثنين المملوءين بالماء. وهنا، مرة أخرى، كانت علامة الماء محفورة على الضفة اليمنى (وكانت الحلقة منقوشة بلا مبالاة تجاه الأعلى أو الأسفل وتمثل دلواً مربوطاً بحبل طويل) وكان مع العلامة اثنتا عشرة نقطة على جانبها وبعض الرسوم غير الدقيقة للإبل. وقد ثبت بالفعل أن مسافة حفرة الماء في القناة الرملية تبلغ بالضبط اثنتي عشرة خطوة مزدوجة ، وكان الماء على بعد ثلاثة أقدام في القاع وبعمق حوالي ثماني عشرة بوصة. لقد كان الماء نظيفاً، عذباً، صافياً إلا مما يغطي سطحه من ريش الطيور، والنحل الميت والفراشات وخلافها، بل كان بارداً ومنعشاً بشكل عجيب. وكنت عطشاً بعد مشينا ذاك وتمتعت بالشرب من ذلك الماء فعلاً.

إن ينبوع الماء هذا يقع فوراً خلف ثنية الوادي لليسار حيث تجري القناة هناك في امتداد طويل واسع إلى أن تصل إلى بعض التلال المنخفضة في البعيد. والبئر الثانية، المشابهة للأولى المذكورة أعلاه، تقع على مسافة ربع ميل منها وبها ثلاثة أو أربعة من أشجار النخيل ذات التمور الناضجة، ولكنها من نوع رديء جداً، وهي تقف كعلامة على موقع معسكر ابن هضبان المكون من خيمتين صغيرتين من الشعر. وكان هناك مجموعة من الجمال والأغنام تسقى عند البئر حين وصلنا إليها. وببعض الصعوبة انضغط ثلاثتنا في المساحة الضئيلة المتوفرة في مقر إقامة مضيفنا والذي كان مليئاً بالمتاع المعتاد للبدو الرحل. وكان سرج جمله الخاص وسجادته المصنوعة من جلد الغنم قد تم

ترتيبها لي بجوار مرتبة جلدية جلست عليها. وكانت أواني القهوة مرصوفة بجوار نار صغيرة عند الحافة الخارجية للخيمة، في حين تقبع مواعين الطبخ، والأواني، في كومة مقابل الطية الخلفية، وراء مضيفتنا، زوجة ابن هضبان الكبرى. وبجوارها جلست ابنتها البالغة رحمة وعدد كبير جداً من الأطفال الصغار - وكان بعضهم من ذرية زوجين غائبين وهما يحتلان الخيمة الأخرى، ويبدو أنهما من ذوي القرابة القريبة لابن هضبان. وكانت رحمة شابة في حوالي العشرين من عمرها، وترتدي ثياباً فضفاضة من النوع النجدي والتي تخفي هيئتها بالكامل، بينما كان وجهها من قصبة أنفها فما دون مغطى برقعة من القماش الأسود مزينة بزوائد وأطراف من الفضة وأشرطة معدنية لامعة. وكان شعرها مغطى بالغطاء العادي من قماش الموسلين الأسود، ولكن جبيتها الجميل نوعاً ما وعيونها البنية الفاتنة كانتا مكشوفتين تماماً. ولم تكن بهية الطلعة جميلة المحيا على وجه التحديد، ولكنها مع ذلك لم تكن محرومة من سحر وفتنة معينة، على الرغم من أنها ظلت صامتة تقريباً خلال جلوسها الطويل، ولاحظت أنه لم يعرض عليها أبداً القهوة والقشر اللذين يدوران على باقي الجماعة بما فيهم أمها الثرثارة الودودة. وكانت ملابس الأخيرة تشبه ملابس ابنتها، باستثناء رقعة الوجه التي كانت سادة تماماً، وكانت ترفعها بدرجة كافية لتدخل فنجان القهوة إلى فيها.

وكان أحد الأطفال الموجودين يرتدي عقداً من حبات العنبر المقلَّد. وكانوا كلهم ذوي عيون مريضة، وبعضهم شديد المرض بصورة فظيعة . وبينما كنا نجلس هناك كانت رؤوسهم ذات الشعر الأشعث تتلقى -واحداً تلو الآخر- اهتمام رحمة التي كانت تبحث عن القمل وتقتله بكفاءة وقدرة هادئة. وجاء رجل، يحتمل أنه صاحب الخيمة الأخرى، وانضم إلى دائرة العائلة في مرحلة متأخرة من زيارتنا. ويبدو أنه قد أتى لتوه من مسافة بعيدة ولديه أخبار عن الولد الكبير الأحسن في صنعاء حيث كان مثل الكثير من الشباب الآخرين ذوي المكانة القبلية الطيبة، يتمتع بكرم الحكومة كرهينة لضمان سلوك والده الحسن. ولم يكن هناك أي مظهر من مظاهر نظام الإمام يحيى ولا حتى

بخله الشديد، أشد بغضاً ومقتاً في هذه المنطقة من خطف واحتجاز الرهائن هـا. ولكن الأخبار في هذه الحالة كانت طيبة، فقد كان الشاب في حالة جيدة وإذا أراد لله سيعود لبيته مرة أخرى في يوم ما. وتفوهت النساء ببعض الأدعية والثناء على لله والشكر له والأمل في عودة الولد. وكان هذا الرجل الذي أتى علينا يدعى مبروك بن محمد بن ناصر من فخذ المرازيق من قبيلة دهم واكتشفنا، بالصدفة العجيبة، أن ولده كان هو المكتشف المحظوظ للجمل البرونزي الذي ذكرناه خلال حديثنا في الصباح.

وعندما قلت إن الوقت قد حان للتحرك احتج ابن هضبان قائلاً إن الوقت مازال مبكراً وشديد الحر للمشي. وعلى أي حال فقد بقيت مصراً على رأيي، ونهض متردداً كي يلحقني، وهو ينهمك في إصدار توجيهاته الأخيرة لعائلته المجتمعة أمامه والتي لن يراها مرة أخرى إلا بعد عودته من بعثتنا. ووضعت ريالين اثنين في يد المرأة العجوز وشكرتها على كرم ضيافتها وأسرعت الخطى نازلاً في الوادي. وسرعان ما جاء ابن هضبان في أثرنا، ودهشت عندما رأيته قادماً بمفرده. وكان ابن قنيبر الذي يمقت بذل أي جهد أو مجهود ويمقت الشمس فوق كل شيء، قد تخلف عنّا بحجة إحضار جمله الذي كان يرعى مع حيوانات قبيلة دهم وفي الحقيقة لم يعد للمعسكر الا في الصباح، وسرعان ما اتضح تفسير ذلك. وقد سألت ابن هضبان عندما كنا نمشي: «هل ابنتك متزوجة؟» فرد قائلا: «لا ولكنها كانت متزوجة». وكان ابن قنبير هو الذي أخذها زوجة عذراء، ولكنه لم يستطع أن يدفع المهر المتفق عليه وقدره أربعون ريالاً، وبعد شهر أو شهرين أعادها إلى بيتها. ولم تتزوج مرة أخرى حتى الآن. ولذلك ربما يعود سبب تخلفه عنا إلى رغبته في تدفئة قلبه بجمر الحب القديم، بل ربما كان حبه القديم حنوناً شفوقاً. إن شؤون الزواج بينهم عبارة عن صفقات تجارية بسيطة بين العريس ووالد العروس، حيث يقوم الأول، إن لم يقدر على دفع الثمن كاملاً، بدفع شيء ما تحت الحساب. وكان ابن قنيبر قد دفع عشرة ريالات

وأخذ الفتاة. وفي تاريخ استحقاق دفع المبلغ الباقي إما أن يرسل النقود لأسرتها أو يطلق زوجته ويعيدها إلى والديها. وهذا النظام معرض بوضوح لمفاسد كثيرة وإساءة استخدام الحق ولكن اقتصاره على دائرة العائلة المحدودة -كما هو الحال- يقلل على الأرجح من عيوبه.

عدنا للمعسكر بطريق أكثر مباشرة من الوادي. وانطلقنا داخل التلال عند الثنية التي تخفي خيام ابن هضبان عن أنظارنا، ولزمنا سلسلة من الوهاد الصغيرة المؤدية إلى وادي العريجا حتى منطقة تقسيم مياه، ومن ثم نزلنا شعيباً مجهولاً لا نعرف له اسماً، والذي ينتهي بعد حوالي ميلين في وادي الشضيف وأعلى البئر بنصف ميل فقط. وتوجد القرب والبراميل الخاصة بنا قابعة حول الحفرة معبأة وجاهزة لرحلتنا الطويلة. وكنت الإبل، منذ وصولها في عصر اليوم السابق، ما تزال ترعى على الأرجح مع قطع ابن هضبان، ولم تعد من المرعى إلا الساعة الثامنة والنصف في صباح اليوم التالي، وهو الوقت الذي كنا وعدنا بوصول الإبل الإضافية عنده. وكان سعد قد انتهى بشكل أو آخر من ترتيب تفاصيل الأحمال مقدماً، بالإضافة إلى أخذ مخزون من المؤونة والطعام. وكان كل شيء قد بدا في الحقيقة جاهزاً للتحرك مبكراً عند الصباح. وبدا كل فرد مسروراً وواثقاً من الخطوة التالية من رحلتنا.